(٥٢) المُرْتَعش[١]

ذكر الشيخ أبي محمد المرتعش قدّس الله سرّه:

كان رحمه الله من أكابر المشايخ، ذا اعتبارٍ بين القوم، مقبولاً عند الأكابر، سافر كثيرًا على التجريد، وكان من خيرة نيسابور.

قد رأى أبا حفص الحداد، وصحب جنيدًا، وأبا عثمان.

وتوفّي في بغداد رحمه الله تعالى في سنة ثمان وثلاث مئة.

نقل أنه قال: حججتُ ثلاث عشرة حجةً[٢] على التوكّل، وحين تفكّرتُ فيها وجدتُها كانت على هوى النفس. قيل: وبمَ عرفتَ ذلك؟ قال: لأنَّ أُمّي قالت: هاتِ إليَّ جرَّةَ الماء، فثقلَ عليَّ، عرفتُ أنَّ الحجَّات كلَّها كانت على الهوى والشهوة.

قال فقير: كنتُ ببغداد، وفي خاطري أن أحجَّ، فخطرَ ببالي أنَّ المُرتعشَ يجيءُ إليَّ بخمسة عشر درهمًا لأشتري ركوةً، ورسنًا، ونعلين، وأدخل البادية. في الحال دقَّ شخصٌ عليَّ الباب، فتحتُ الباب، فإذا هو المُرتعشُ، وبيده ركوةٌ، فقال: خذها. قلت: ما آخذها. قال: خذ ولا تُتعبني، كم درهمًا

---

(١) هو عبد الله بن محمد المرتعش النيسابوري، وترجمته في:

طبقات الصوفية ٣٤٩، حلية الأولياء ١٠/ ٣٥٥، تاريخ بغداد ٧/ ٢٢١، الرسالة القشيرية ٩٨، الأنساب ١١/ ٢٣٧، مناقب الأبرار ٦٦٩، المنتظم ٦/ ٣٠١، صفة الصفوة ٢/ ٤٦٢، المختار من مناقب الأخيار ٣/ ٤٩٩، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٣٠، العبر ٢/ ٢١٥، مرآة الجنان ٢/ ٢٩٥، طبقات الأولياء ١٤١، البداية والنهاية ١١/ ١٩٢، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٦٩، نفحات الأنس ٣٠٣، طبقات الشعراني ١/ ١٠٥، الكواكب الدرية ٢/ ١٠٩، شذرات الذهب ٢/ ٣١٧.

(٢) في (ب): حججت ثلاثة عشر حجًا.

طلبت؟ قلتُ: خمسة عشر درهمًا. قال: خذ. وبيده خمسة عشر درهمًا، فأخذها الفقير.

ونقل عن المرتعش أنّه كان يدور في بعض محلاّت بغداد في شغلٍ له، فغلبَه العطشُ، وطلبَ الماءَ من بيتٍ، فخرجت بنتٌ جميلة بكوزٍ فيه ماءٌ بارد، فلمّا رآها الشيخ عشقَها، وقعد على الباب إلى أن جاءَ صاحبُ البيت، فقال الشيخ: يا فلان، بع القلب شربة ماءٍ ثقيل، والحالُ أن من بيتك[1] سقوني شربةَ ماءٍ واصطادوا قلبي. قال الرجل: تلك ابنتي، أُزوّجُك بها، فأدخلَ الشيخَ البيت، وعقدَ له نكاحَ البنت، وأرسله إلى الحمام، وألبسَهُ ثيابًا نفيسةً نظيفة، وخلع عنه الخرقة، ولمّا أَمسوا وسلّموا له البنتَ، فقامَ المُرتعشُ، واشتغل بالصلاة، فبينما هو يُصلّي إذ شهقَ شهقةً، وصاحَ صيحةً، وقال: هاتوا إليَّ مرقّعي. قالوا: وما جرى؟ قال: نُودي في سرِّي: خلعنا عن ظاهرك[2] الخرقةَ بنظرةٍ نظرتَ إلى أجنبيةٍ، فإنْ نظرْتَ نظرةً أُخرى نخلعُ عن باطنك خلعةَ المعرفة. فأخذ مرقعتَهُ ولبسها، وطلّقَ المرأة، وخرجَ من البيت، وذهب.

ونقل أنّه قيل: إنّ فلانًا يذهبُ على الماء. فقال: من وفّقَهُ الله تعالى لمخالفةِ هواه، فإن أرادَ طارَ في الهواء، وإن أرادَ ذهبَ على الماء.

ومن كلامه أنه قال: من اعتقدَ أنّه بعملِهِ يدخلُ الجنّة وينجو عن النار، فقد أوقعَ نفسَه في خطرٍ عظيم، ومن اعتمدَ على فضلِ الله بعد العمل الصالح والاجتهاد، فاللهُ تعالى يُوصلُه إلى الجنة بفضله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨].

قيل له: بما يحصلُ للعبدِ محبّةُ الله تعالى؟ قال: بمعاداة ما اتّخذه الله عدوًا، وهو الدنيا والنفس.

---

(١) في (أ): وقعد على الباب، فخرج صاحب البيت، فقال المرتعش: قد وقع عليّ الحال بشربة ماء، والحال أن في بيتك.

(٢) في (أ): عن ظهرك.

وقال: أصلُ التوحيدِ معرفةُ الله تعالى بالرُّبوبية، ونفي الأضداد كلِّها.

وقال: لا تصحُّ المعاملة إلاّ بشيئين: الصبر والإخلاص.

وقال: المخلصُ إذا سلّم قلبَه لله فذلك سلوةٌ، وإن سلّم لغيرِ الله تعالى فذاك بلاءٌ.

وقال: التصوف حسنُ الخلق.

أقول: وذلك لأنَّ الخُلق كما قيل مَلَكَةٌ للنفس، أي صفةٌ راسخةٌ ثابتة، تصدر عنها الأفعال بسبب تلك الملكة بسهولة، فإذا وصلَ العبدُ إلى مقامٍ تصدرُ عنه أفعالُ الخير، وأعمالُ البرِّ بسهولةٍ بلا مشقَّةٍ، فلا جرمَ أنّه يكون صوفيًا عابدًا لله تعالى بالطوعِ والاختيار. والله أعلم.

وقال: التصوفُ حالةٌ تُغيِّبُ صاحبَها عن كلِّ قيلٍ وقال، وتذهبُ به إلى الله المتعال ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٥] حتى يرى الله باقيًا، ويرى نفسَه فانيةً.

نقل أنّ بعضَ أصحابه طلبَ منه وصيةً، قال: عليكم بملازمةِ شخصٍ يكون لكم خيرًا منّي، واتركوني واذهبوا إلى من هو خيرٌ لي منكم.

رزقنا الله تعالى المُلازمةَ للتقوى، والمواظبةَ على الهدى، وصلّى الله على سيِّدنا محمد وآله أجمعين.

* * *